د. أودي أديب *

الحزب الشيوعي الفلسطيني
في المرآة المكسورة التي يوظّفها علم التاريخ الإسرائيلي

(*) يمثّل تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني قصةً تنطوي على نهايةٍ تراجيدية. وهي قصةٌ استُهلّت بإطلاق صرخةٍ مدوّيةٍ اقترنت بآمالٍ عظيمةٍ ورؤيةٍ تفضي إلى إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ مستقلة، وانتهت بنبرةٍ خفيضةٍ وحزينةٍ تبعتها اتّهاماتٌ متبادلةٌ بين أعضاء الحزب من العرب واليهود بسبب سلسلة الأحداث التي أدّت إلى الكارثة التي شهدها الحزب، وبسبب فشله في الخروج بـ "فكرةٍ" ترسم الواقع السياسي الذي ساد الحقبة التي انطلق فيها وعمل خلالها.

لقد كانت نهاية الحزب الشيوعي الفلسطيني نهايةً تراجيديةً بالفعل، لأنها شكّلت نتيجةً حتميةً لحالة التناقض المتلازمة التي شابت النظرية الماركسية نفسها. ولذلك، تتّسم هذه النهاية بخصلةٍ من خصال التراجيديا الإغريقية، بما تشمله من ابتذال وخشونة، باعتبارها مثلت فشلاً ضروريًا في مواجهة "الضرورة". ويعبّر هذا الفشل، بعبارةٍ أخرى، عن التناقض القائم بين الفكرة الشيوعية، بصفتها غاية العملية التاريخية، وواقع الكفاح الوطني الذي لا يقتصر على كونه وسيلةً تُفضي إلى تلك الغاية.

ومع ذلك، كان الحزب الشيوعي الفلسطيني، طيلة عشرين عامًا من وجوده كحزبٍ موحَّد، المنظمة الوحيدة التي ضمّت في عضويّتها أفرادًا يهودًا وعربًا عملوا مع بعضهم البعض على هديٍ من رؤيةٍ سياسيةٍ مشتركة. وقد شكّلت هذه الرؤية النقيض المباشر للأيديولوجيا القومية الصهيونية السائدة التي تقوم على الإقصاء والعامل الإثنيّ – بصرف النظر عن طريقة إنشائها وتشكيلها – والتي لم تكن تستند إلى فكرٍ جمهوريٍّ أو أساسٍ ديمقراطيّ. كما تسبّبت هذه الأيديولوجيا القومية الصهيونية، التي نشأت مع بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين، في إذكاء نار النزاع، بل وظلّت

* أستاذ في الجامعة المفتوحة- إسرائيل.

ففي ضوء الفكرة العالمية الماركسية، كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يضمّ بين جنباته يهودًا غربيين وشرقيين ناضلوا منذ البداية ويدًا بيد مع أعضاء الحزب من العرب وعملوا سويةً على مقاومة "الجماعة الأشكنازية (الغربية)" الصهيونية المهيمنة. ولذلك، فقد جرى تفسير الصراع الوطني، من ناحية الأيديولوجيا الماركسية، ضمن سياق اجتماعي- سياسي باعتباره مظهرًا من مظاهر صراع الطبقات، وذلك في الوقت الذي كانت تنظر مدرسة ما بعد الصهيونية والمستشرقون فيه إلى هذا الصراع على أنه "تطهيرٌ عرقي"، أو مظهرٌ من التفوق العنصري المتأصل في الروح الدفينة لدى "الرجل الأبيض" وفق تعبير فانون وسعيد (Fanon and Said).

ومع ذلك، فقد كان هناك ثلاثة أو أربعة مؤرخين إسرائيليين، حاولوا إعادة اكتشاف القصة المخفية للحزب الشيوعي الفلسطيني.

منذ ذلك الحين تمثّل القوة الرئيسة التي تحرّكه وتؤجّجه. وبالنظر إلى هذه النهاية الحزينة، التي أدركناها بعد فوات الأوان، عمد علم التاريخ الصهيوني- الإسرائيلي إلى إلغاء التجربة التاريخية الهامة والملفتة التي عاشها الحزب الشيوعي الفلسطيني أو إنكارها أو تجاهلها في أحسن الأحوال. ولكن ساد تلاعبٌ جليٌّ التعامل مع تاريخ هذا الحزب. وبالأحرى، يمكن للمرء أن يشكّك في القراءة التي يسردها التاريخ الصهيوني- الإسرائيلي في هذا الشأن عند النظر في الرؤية المقابلة التي تقول بأن الحزب الشيوعي الفلسطيني قد أضفى، في جميع الأحوال، إسهاماته الملموسة على الحياة في فلسطين-إسرائيل. وبذلك، يفرض السؤال التالي نفسه أمامنا: "ما السبب الذي يقف وراء نشوء هذا الموقف السلبيّ تجاه الحزب الشيوعي الفلسطيني، وما الغاية منه وما معناه؟". وتشكّل هذه المسألة، في واقعها، حالةً من حالات الإدراك المتأخر التي نمت إلى أذهاننا.

تنطوي الفرضية التي أستعرضها في هذه المقالة على شقّين، أولهما أن الموقف السلبيّ التي يتبنّاه علم التاريخ الإسرائيلي تجاه الحزب الشيوعي الفلسطيني قد يمثل مؤشرًا إلى درجة انسجامه وتوافقه من الناحية القومية الصهيونية، وبالتالي فهو يدلّ على غياب أيّة غايةٍ نظريةٍ وأخلاقيةٍ- سياسيةٍ أصيلةٍ تتخطّى الخطاب الأيديولوجي الصهيوني. وفي المقام الثاني، من الممكن أن الشراكة الأيديولوجية والسياسية التي وحّدت اليهود والعرب داخل الحزب الشيوعي قد استُخدمت كنموذجٍ وكدراسة حالةٍ سياسية، من ناحية مادتها وجوهرها، لدحض الافتراض الأيديولوجي الرئيس الذي يسوقه علم التاريخ الصهيوني- الإسرائيلي بشأن حتمية الطبيعة القومية للنزاع القائم مع الشعب الفلسطيني.

وفضلاً عن ذلك، يبدو أن القيادة الصهيونية، وعلى الرغم من النجاح العسكري الذي سجّلته خلال حرب العام ١٩٤٨، لم تتمكّن من تحقيق هدفها بحذافيره، وذلك بمعنى أنها لم تنجح في التحول إلى السيد الحقيقي للأرض. فكما يذكّرنا شكسبير وكوجيفي (Kojeve)، فإن هذا السيد وفي الوقت الذي يفتقر فيه إلى أي اعترافٍ بوضع السيد (حتى لو كان هو السيد المحتمل، ولكنه لا يزيد عن كونه عبدًا الآن) لا يزال في قرارة نفسه، كما هو حال هاملت (Hamlet)، في حالةٍ من "الوعي التعيس" وفي حالةٍ عابرةٍ يثير بسببها في نفسه أسئلةً حول كيانه من ناحية وجودية (بمعنى "أن تكون أو لا تكون"). وبالفعل، فلم تزد الحركة الصهيونية بالنصر الذي حقّقته على أن فازت باعتراف أقلية الشعب الفلسطيني، الذي لم يزل باقيًا ضمن حدود أرضه، ولم يكن ذلك إلا بحكم الأمر الواقع. وفي المقابل، أصرّت الغالبية الساحقة من المواطنين الفلسطينيين، الذين كانوا موجودين خارج حدود أرضهم، على رفض الاعتراف بسيادة إسرائيل وواصلوا القتال ضدها. وفي ضوء ما تقدّم، فقد أدلى علم التاريخ الإسرائيلي بدلوه في غضّ الطرف عن تلك الأقلية الفلسطينية التي بقيت موجودةً داخل حدود إسرائيل، وذلك من خلال تحويلها إلى "أقلية عربية" دخيلة وعدوانية، و/ أو تجمعٍ عرضيٍّ من الأقليات الدينية التي لا تستحق الاعتراف بها كشعبٍ (Reches، 1994). وقد يسَّر هذا الموقف، وبعلم من يتبنّونه، لإسرائيل إحكام هيمنتها وسيطرتها على هذه الأقلية. ومع ذلك، فلم يكن المؤرخون الإسرائيليون على علم بأن إسرائيل كانت، وعلى المدى البعيد وفي ظل غياب أي اعترافٍ فلسطينيّ، قائمةً في

نفسها فقط، وفي حالةٍ عابرةٍ من دون معرفةٍ حقيقيةٍ بوجودها أو بالثقة في نفسها.

برزت خلال العقدين الثامن والتاسع من القرن الماضي، أعمال "المؤرخين الجدد" وعلماء الاجتماع في مرحلة "ما بعد الصهيونية" إلى النور. وقد تكفّلت هذه الدراسات بتقويض الخطاب الأيديولوجي الذي وظّفه التيار السائد في علم التاريخ الإسرائيلي. كما درست هذه الأعمال تاريخ الحركة الصهيونية باستخدام أدواتٍ تحليليةٍ تعتمد قدرًا أكبر من النظرة النقدية، من قبيل "القوة والهيمنة" أو "التطهير العرقي" (Pappe، 2006)، و"المركز والمحيط" (Kimmerling، 2004)، و"المهاجرين والسكان الأصليين" (Yiftachel، 1999)، و"الغرب والشرق" (Yona and Shenhav، 2005). وبعبارة أخرى، لم تكن القوة المحركة للحركة الصهيونية وغاياتها، بحسب هؤلاء المؤرخين الجدد، تكمن في "خلاص الشعب اليهودي" و/ أو الفكرة الاشتراكية اليهودية المعروفة بـ "هاحلوتزيم" (الروّاد) على الإطلاق. بل كانت تلك القوة وغاياتها تشكّل اقترانًا بين طمع القيادة الصهيونية في القوة وتلهّفها على امتلاكها. وفي سبيل ذلك، وظّفت هذه القيادة الصهيونية معضلة اليهود الألمان خلال الثلاثينيات من القرن الماضي من أجل تعزيز خطة الهيمنة التي وضعتها.

ولكن يبدو أن المؤرخين وعلماء الاجتماع الذين برزوا في مرحلة ما بعد الصهيونية يتجاهلون التجربة التاريخية التي مرّ الحزب الشيوعي الفلسطيني بها لأنهم قدّموا أنفسهم باعتبارهم "مؤرخين جددًا" و/ أو مؤرخين "في مرحلة ما بعد الصهيونية"، كما لو أنه لم يكن هناك معارضون للصهيونية قبل وجودهم على مدى ردحٍ طويلٍ من الزمن. غير أن الصعوبة التي تواجهها الدراسات النقدية الجديدة، والمدرسة المتعددة الثقافات ومدرسة ما بعد الكولونيالية على وجه التحديد، تكمن كذلك في مادتها – وهي مادةٌ تنكر الفكرة العالمية للشيوعية، وتَظهر بدلاً من ذلك على أنها تسلِّم، في نهاية المطاف، بالافتراض المسبق الذي تسوقه الأيديولوجيا الصهيونية، بمعنى أن الاختلافات الإثنية هي مسلّمات الواقع وأبجدياته، وهي نقطة انطلاقها ووُجهتها، وذلك في الوقت ذاته الذي تنتقد فيه إسرائيلَ بسبب تقصيرها في "تقسيم" الطوائف الإثنية على النحو المطلوب. وعلى الرغم من هذا "الانتقاد"، تُحْجِم الدراسات المذكورة عن انتقاد الفئة اليهودية، لأنها لا تزال تمثل الفئة الرئيسة التي تميّز بين اليهودي الشرقي والعربي الشرقي (أقول على وجه التقريب "غير اليهودي"، لأن اليهودي الشرقي يملك نفس الجوهر "الثقافي" في نظر المدرسة "الراديكالية" ما بعد الكولونيالية).

وإذا كان لنا أن نتحدث بصورةٍ غير مباشرة تنطوي على قدرٍ أكبر من التنظير، فإن المشكلة تكمن في المحاولة التي يبذلونها في وصف الواقع السياسي والتاريخي من ناحية الجوهر الثقافي، كأن يكون ذلك من محاولةٍ تقوم بها جماعة اليهود الأشكنازيين (الغربيين) المهيمنين لفرض صوتها المتآلف الذي يتناقض مع مختلف هويات اليهود الشرقيين والشعب الفلسطيني المحلي. وبذلك، يكون هذا الحلّ محدودًا ومقيَّدًا في جانبٍ كبيرٍ منه، ولا يقع إلا ضمن الفضاء الذي يسميه هومي بابا (Homi Bhabha، 1996) "الحيز الثالث"، أو "الحدود"، التي تفصل الجماعات المتنافرة والمتنازعة أو تربط بينها. ولكن قد لا يزيد مثل هذا الإطار الضيق عن كونه مجرد مكانٍ للراحة أو طريقةٍ للتخفيف من النزاع وتهذيبه، وهو لذلك إطارٌ يُعَدّ بعيدًا ومنسلخًا عن كونه يشكّل وسيلةً للتفوق لدرجة أن طابع النقد الذي يخرج به هذا الإطار يبدو كأنه "يهذّب" النزاع بغية إدامته والإبقاء على استمراريته. ويكمن الخطأ النظريّ الماثل في هذا المقام في محاولة وضع ما يسميه هايدغر (Heidegger) "الوجود" قبل قدرة الإنسان الواعية والمستقلة على تجاوز وجوده المباشر وتغيير العالم الذي يعيش فيه. ولذلك، يفسّر المؤلفون "في مرحلة ما بعد الصهيونية" النزاع القائم على أنه تعبيرٌ حتميٌّ ومباشرٌ عن جماعتين إثنيتين مختلفتين كلٌّ منهما ندٌّ للأخرى. وللتأكيد على ذلك، يتّسم هؤلاء المؤلفون "في مرحلة ما بعد الصهيونية" بدرجةٍ أكبر من النفاق، كما ألمحنا إلى ذلك أعلاه. فهم لا يُعتبرون من أعلام ما بعد الصهيونية إلا لأنهم صهيونيون من الناحية السياسية ولأنهم، في نهاية المطاف، يرغبون في رؤية تلك الاحتفالية المتعددة الثقافات تجري في دولةٍ يهودية.

ويستطيع المرء أن يرى الآن الاختلاف القائم على الفور. ففي ضوء الفكرة العالمية الماركسية، كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يضمّ بين جنباته يهودًا غربيين وشرقيين ناضلوا منذ البداية ويدًا بيدٍ مع أعضاء الحزب من العرب وعملوا سويةً على مقاومة "الجماعة الأشكنازية (الغربية)" الصهيونية المهيمنة. ولذلك، فقد جرى تفسير الصراع الوطني، من ناحية الأيديولوجيا الماركسية، ضمن سياق اجتماعي – سياسي باعتباره مظهرًا من مظاهر صراع الطبقات،

وكان حزب "عمال صهيون غادروا" يشكّل في نفسه الفصيل اليساري لهذا الحزب (حزب العمال الصهيونيين)، وهو فصيلٌ حاول بكل ما أوتيَ من قوة أن يتخطى الهوّة التي فصلت بين الصهيونية والشيوعية. ولكن الكومنترن أصدر في شهر تموز ١٩٢٢ رسالةً غامضةً إلى حزب "عمال صهيون غادروا"، طلب فيها إليه التخلي عن وجوده المعزول والانضمام إلى الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط. وكان من المؤكد أن هذا الطلب كان يحمل آثارًا بعيدة المدى منذ إنشاء أول حزب شيوعي فلسطيني، الذي شكّله حزبٌ إقليميٌّ بصرف النظر عن الفكرة الصهيونية التي تنادي بالقومية الإثنية اليهودية.

وذلك في الوقت الذي كانت تنظر مدرسة ما بعد الصهيونية والمستشرقون فيه إلى هذا الصراع على أنه "تطهيرٌ عرقي"، أو مظهرٌ من التفوق العنصري المتأصل في الروح الدفينة لدى "الرجل الأبيض" وفق تعبير فانون وسعيد (Fanon and Said).

ومع ذلك، فقد كان هناك ثلاثة أو أربعة مؤرخين إسرائيليين، حاولوا إعادة اكتشاف القصة المخفية للحزب الشيوعي الفلسطيني. ومن المؤكد أن الفضل يعود لهؤلاء المؤرخين الذين أدركوا، على خلاف أقرانهم من مؤرّخي التيار الغالب، أهمية القصة التراجيدية التي انتهى إليها هذا الحزب بالنسبة للقراء الإسرائيليين الذين "لم يكونوا على معرفةٍ بجوزيف (ستالين)". ومع ذلك، تكشف قراءةٌ خاطفةٌ وسريعةٌ للكتب التي ألّفها كل من شموئيل دوتان (Shmuel Dotan، 1991)، وولتر لاكير (Walter Laquer، 1957)، وسوندرا روبنشتاين (Sondra Rubenstein، 1985)، وأوري غريزلماير (Uri Grislmayer، 1985) إلى أيّ حدٍّ لم يدركوا مغزى قصة هذا الحزب حينما استنتجوا أن ارتباطه بالاتحاد السوفييتي يمثل التفسير الرئيس لما آل إليه، والسبب الأساس الذي يقف وراء التوجّه الذي تبناه في مناهضة الصهيونية ومقارعتها.

ومما لا شكّ فيه أن المؤلفين المذكورين ينظرون إلى تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني، على نحو ما كان عليه حالُه من وجهة نظرهم- أي من وجهة نظرٍ صهيونية - وليس من ناحية ما كان هذا الحزب عليه في واقع حاله وفي نفسه.

وعلى هذا المنوال، يبدو أن هؤلاء الكتاب ألّفوا قصة الحزب الشيوعي الفلسطيني بعد انقضاء الوقائع التي عايشها وعلى نحوٍ عامٍّ وفضفاض، أي في سياق حالةٍ من الإدراك المتأخر للأحداث التي مر بها، كما لو كان الأمر تأريخًا لحادثة وفاةٍ جرى التنبؤ بها سلفًا، أو لقصة بوليسية. فقد عمل هؤلاء الكُتّاب على إعادة بناء الدوافع الخفية والغاية الحقيقية التي تبنّاها الحزب في ضوء البيانات الشيوعية الواضحة، بحسب تعبير شيرلوك هولمز (Sherlock Holmes). ولذلك، يشير دوتان في التقديم لكتابه إلى أنه كان يعرف في الأصل أن الحزب الشيوعي الفلسطيني كان جزءًا مما سماه "الشبكة السوفييتية" التي كانت تعمل خلف الكواليس خلال تلك السنوات وعلى نطاقٍ دوليٍّ أيضًا. ومع ذلك، يقترح دوتان بأن "هذا الكتاب لم يكن قد أُلِّف بدافع من أي ميولٍ سياسيةٍ فعلية". كما يعتقد بأنه "من غير المرجّح أن يقدّم التحقيق في الماضي إجابةً عن أية مشاكل من مشاكل الوقت الحاضر".

ومن أجل دحض الادعاء الأكاديمي الذي يسوقه دوتان من جذوره، لا يحتاج المرء إلى معرفة "ما هو التاريخ؟"، أو كيفية كتابته. فللقيام بذلك، يستطيع المرء أن يقرأ قائمةً من مؤلفات المختصين المعروفين في الشؤون السوفييتية، والذين برز ذكرهم في تقديم كتابه. فبحسب ما جاء على لسان دوتان، فإن هذه القائمة من الأشخاص "عززت القرار الذي اتخذته لرؤية بعض الشؤون السوفييتية والشيوعية بمثابة خلفية أساسية للمواضيع التي نتطرق إليها في كتابنا". ويقر دوتان، وبما لا يدع مجالاً للشك، بأن تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني لا يمكن أن يقدم سوى إجابةٍ على مسألة مشاركة الاتحاد السوفييتي في شؤون الشرق الأوسط خلال تلك السنوات. وفضلاً عن ذلك، تُبرز قراءةٌ سريعةٌ للكتاب الميول الصهيونية لدى مؤلفه. وبذلك، وفي نهاية إحدى

في بادئ الأمر، عبّر الحزب الشيوعي الفلسطيني، عن دعمه، بل وشارك في ما عُرف بالكفاح الوطني الفلسطيني. ولكن لم تكن للحزب كلمة فصل بشأن أهدافه السياسية ولا بشأن طابعه التقليدي الزراعي الذي كان ينادي بموجبه بتوزيع الأراضي توزيعًا عادلاً. ومن الجدير بالذكر كذلك أن بعض النشطاء اليهود، ولا سيما في حيفا، شنّوا عدة هجمات ضد المؤسسات الصهيونية إلى جانب بعض الأعضاء العرب الذي شاركوا مشاركةً فاعلةً في الكفاح المسلح. وقد أسهمت هذه الهجمات في تصاعد حدّة الموقف العدائي الذي تولّد لدى المجتمع اليهودي تجاه الحزب. وعلى وجه التحديد، أفصح السكان اليهود عن عدائهم تجاه أعضاء الحزب من اليهود الذين نظروا إليهم باعتبارهم أفرادًا ارتكبوا أعمالاً إرهابيةً ضد اليهود.

المنشورات الشيوعية، التي دعت العمال اليهود إلى عدم الهجرة إلى فلسطين، يتحمل دوتان العناء بالإشارة إلى أن "مثل هذه الإدانة اليهودية للصهيونية لم تكن أكثر إيلامًا أبدًا". وعلى نحوٍ مماثل، يستطيع المرء القول بأن هذا التعقيب القومي الصهيوني لم يكن على هذا القدر من الصراحة في كتاب دوتان. وعلاوةً على ذلك، لا تنعكس الميول القومية الصهيونية التي يتبنّاها المؤلف في الصراحة التي ينطوي عليها الكتاب في ثناياه فحسب، وإنما أيضًا في المحاولة التي يبدي الاستعداد لبذلها من أجل التعبير عن ألمه كما لو كان "يؤذي" اليهود والديانة اليهودية بعمومها. وبذلك كله، يبدو أن ما "يؤلم" دوتان ونظراءه من المؤرخين والمستشرقين من مريدي التيار الغالب هو أنهم لم يقفوا في الحقيقة على الدرس التاريخي الذي ميّز الحزب الشيوعي الفلسطيني.

تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني

تم تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني في العام ١٩٢٣ باعتباره اتحادًا يضمّ منظماتٍ اشتراكيةً يهوديةً صغيرةً كانت قد انفصلت عن حزب "بوعالي تسيون سمول" (Poalei Zion Small) (والذي يعني "عمال صهيون غادروا") وذلك على خلفية الضغط المتواصل الذي مارسه الكومنترن (Comintern) والعداء التاريخي الذي احتدم بين الشيوعية والصهيونية حول الحل الاشتراكي لـ "القضية اليهودية".

وكان حزب "عمال صهيون غادروا" يشكّل في نفسه الفصيل اليساري لهذا الحزب (حزب العمال الصهيونيين)، وهو فصيلٌ حاول بكل ما أوتيَ من قوة أن يتخطى الهوّة التي فصلت بين الصهيونية والشيوعية. ولكن الكومنترن أصدر في شهر تموز ١٩٢٢ رسالةً غامضةً إلى حزب "عمال صهيون غادروا"، طلب فيها إليه التخلي عن وجوده المعزول والانضمام إلى الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط. وكان من المؤكد أن هذا الطلب كان يحمل آثارًا بعيدة المدى منذ إنشاء أول حزب شيوعي فلسطيني، الذي شكّله حزبٌ إقليميٌّ بصرف النظر عن الفكرة الصهيونية التي تنادي بالقومية الإثنية اليهودية. وبذلك، جرى انتخاب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني الوليد في شهر أيلول ١٩٢٣، "وهو الحزب الذي قدم المساعدة لقيادة الحركة الوطنية العربية".

الثورة الدينية في العام ١٩٢٩ و"عربنة" الحزب

كان المفترق التالي في 'طريق الآلام' الذي سلكه الحزب الشيوعي الفلسطيني يتمثل في الثورة الدينية الفلسطينية التي اندلعت في شهر آب ١٩٢٩، بعد أن قام مسلحون شبانٌ من الفصيل الصهيوني الثوري، وهم من أتباع الفصيل اليميني الصهيوني الذي كان زئيف جابوتنسكي (Ze'ev Z'abotinsky) يتزعّمه، بخرق الوضع القائم في "حائط المبكى". ولكن هذه الثورة تحولت تحت قيادة "المجلس الإسلامي الأعلى" إلى برنامج طائفي ديني، تم توجيهه ضد السكان اليهود في كافة مناطق تواجدهم. وقد شجبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، في المنشور الأول الذي أصدرته، وبشدةٍ الطابع الطائفي الديني لتلك الثورة، ودعت "جميع العمال في البلاد إلى خوض النضال ضد الحكم

الاستبدادي للإنكليز والصهيونيين والسادة الأفنديين". وبعد شهرٍ من ذلك، عبّرت قيادة الكومنترن عن إدانتها الشديدة للرد الأول الذي خرج به الحزب الشيوعي الفلسطيني واعتبرته "نتيجةً حتميةً للتركيبة اليهودية التي تشكل منها الحزب". وبحسب ما جاء في قرار الكومنترن، يتعين على الحزب الشيوعي الفلسطيني أن يتبنّى سياسة "العربنة"، التي تعني في أساسها استبدال القيادة اليهودية للحزب بقيادة تتألف من الأعضاء العرب في الحزب. وكان مما لا مناص منه أن مسار "العربنة"، إلى جانب الدعم غير المشروط الذي قدمه الحزب للهجمات الطائفية الدينية على السكان اليهود، ولّدا مقاومةً كبيرةً في أوساط الأعضاء اليهود الذي كان يشكلون ما يقرب من ٨٥ بالمئة من أعضاء الحزب. ونتيجةً لذلك، قرر عددٌ كبيرٌ من أعضائه من مدينة حيفا ترْك الحزب. ومن جانبٍ آخر، عارض عدد ليس بالقليل من الأعضاء، ممن بقوا في عضوية الحزب وبمن فيهم شخصيتان قياديتان كذلك، سياسة "العربنة" الجديدة.

الثورة الوطنية ١٩٣٦- ١٩٣٩

شكّل العقد الثالث من القرن الماضي حقبةً مضطربةً في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، حيث وصل كفاحها ضد الحكم البريطاني والاستعمار الصهيوني ذروته. ومع ذلك، بقيت الثورة التي اندلعت في العام ١٩٣٦ ثورةً محليةً تحركها دوافع عربية-إسلامية في جانبٍ كبيرٍ منها. وبذلك، فهي لم تكن ثورةً وطنيةً فلسطينية. وكانت هذه الثورة موجهةً، بصورة ضمنية وصريحة في ذات الوقت، ضد الحكم البريطاني والاستيطان الصهيوني والسكان اليهود بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي ووجهاتهم السياسية.

في بادئ الأمر، عبّر الحزب الشيوعي الفلسطيني، عن دعمه، بل وشارك في ما عُرف بالكفاح الوطني الفلسطيني. ولكن لم تكن للحزب كلمة فصل بشأن أهدافه السياسية ولا بشأن طابعه التقليدي الزراعي الذي كان ينادي بموجبه بتوزيع الأراضي توزيعًا عادلاً. ومن الجدير بالذكر كذلك أن بعض النشطاء اليهود، ولا سيما في حيفا، شنّوا عدة هجماتٍ ضد المؤسسات الصهيونية إلى جانب بعض الأعضاء العرب الذي شاركوا مشاركةً فاعلةً في الكفاح المسلح. وقد أسهمت هذه الهجمات في تصاعد حدّة الموقف العدائي الذي تولّد لدى المجتمع اليهودي تجاه الحزب. وعلى وجه التحديد، أفصح السكان اليهود عن عدائهم تجاه أعضاء الحزب من اليهود الذين نظروا إليهم باعتبارهم أفرادًا ارتكبوا أعمالاً إرهابيةً ضد اليهود.

ومع الجدل الذي دار حول لجنة بيل الملكية (Peel Commission) التي شُكِّلت في صيف العام ١٩٣٧، وفي ضوء المؤتمر الذي عقده القادة العرب في بلودان، بدا أن بعض الأعضاء اليهود في الحزب الشيوعي الفلسطيني شرعوا بصورةٍ علنيةٍ في مناهضة سياسة "عربنة" الحزب، وطالبوا بتبنّي سياسةٍ جديدةٍ تستهدف "نزع الصفة الصهيونية عن المجتمع اليهودي" بالإضافة إلى إنجاز "الأخوّة اليهودية- العربية". وبذلك، صدرت ورقةٌ شيوعيةٌ جديدة، هي ورقة 'كول هعام' (صوت الشعب) باللغة العبرية للمرة الأولى ورأت النور في صيف العام ١٩٣٧. كما أسّست هذه المجموعة، وبمصادقة اللجنة المركزية للحزب، ما عرُف بـ "القِسم اليهودي" من الحزب قُبيل نشر الورقة المذكورة. وفي بادئ الأمر، وجّه كانوخ باجوجا (Khanoch Bj'oj'a)، وهو الزعيم الشابّ للقسم الجديد، مع زملائه الذي كانوا في معظمهم طلابًا في الجامعة العبرية، انتقاده للطريقة السرية التي انتهجها الحزب، والتي تسبّبت في انعزاله في أوساط المجتمع اليهودي وسمحت لـ "العدو الصهيوني" بإساءة تفسير أشباه أو أمثال (doppelgänger) الشيوعيين وتصويرهم على أنهم "يكرهون اليهود". ومع مرور الوقت، عمل القسم المذكور على رفع نبرة انتقاده الذي كان موجهًا في تلك المرحلة ضد سياسة العربنة التي تبناها الحزب نفسه. وبحسب القائمين على هذا القسم، كانت سياسة العربنة تستهدف وجود المجتمع اليهودي نفسه، وذلك باعتبار أنه شكّل جزءًا لا يتجزأ من الحكم البريطاني. وعلى النقيض من ذلك، كانت السياسة الجديدة التي طرحها القائمون على القسم الوليد ترى أنه كان ينبغي على الحزب أن يحاول التسلّل إلى مؤسسات المجتمع اليهودي ومنظماته وأن يعمل داخلها على غرار خديعة "حصان طروادة". فبهذه الطريقة، يستطيع الحزب أن يزيد من قدر تأثيره وأن يستقطب الأفراد التقدميين والمستنيرين من الجماهير اليهودية إلى جانبه.

بدا أن النجاح كان في بادئ الأمر من نصيب السياسة الجديدة التي انتهجها القسم اليهودي. ففي ربيع العام ١٩٣٩، أُنشئت "رابطة التقارب اليهودية- العربية" بناءً على مبادرة بريت شالوم (Brit Shalom) وجماعات أخرى من حركة 'عمال صهيون غادروا'. وقد اضطلع القسم، في تلك الآونة، بدورٍ مهم في إنشاء الرابطة المذكورة وتحديد نشاطاتها. ولم يكن هناك من شكٍّ من أن اعتراف

الحزب وتعاونه مع المنظمات اليسارية الصهيونية كان خطوةً إيجابيةً من شأنها تعزيز تأثيره في الرأي العام اليهودي حينئذ. ولكن المشكلة كانت تكمن في أن هذه الخطوة التكتيكية التي أقدم عليها الحزب تحولت إلى إستراتيجيته الرئيسة، وهو ما كان يعني التخلي التام عن التوجه القومي الفلسطيني الذي كان الحزب الشيوعي يتبناه في السابق.

وقد رفض رضوان الحلو (موسى)، زعيم الحزب، وميكونيس (Mikonis)، كبير الأعضاء في اللجنة المركزية، الإستراتيجية الجديدة التي أعلنها كانوخ باجوجا وزملاؤه منذ البداية. وفي ردّهما على باجوجا وأتباعه، شدّد موسى وميكونيس وبلا مواربة على أن سياسة "العربنة" السابقة كانت تعتبر جميع أفراد المجتمع الصهيوني بمثابة "دخلاء على الكيان اليهودي" وجزءًا لا يتجزأ من السيطرة الكولونيالية البريطانية التي كانت تهدّد الشخصية التاريخية لفلسطين بصفتها "أرضًا عربية". ولذلك، فلم يكن هناك، من وجهة نظر موسى وميكونيس، أي تبرير للنشاط السياسي الذي خاضه القسم اليهودي، بما فيه من الدوائر اليسارية الصهيونية، حيث يستطيع "اليهودي الطيب"، الذي يقف في وجه المجتمع الاستيطاني الصهيوني إلى جانب الحركة الوطنية العربية، أن ينضمّ إلى عضوية الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وقد قرّرت اللجنة المركزية، بعد الاجتماع الذي عقده أعضاؤه مع باجوجا، حلّ القسم اليهودي. وبذلك، خلقت الجمعية الشرخ الأول في جسم الحزب، حيث باشر أعضاء القسم اليهودي، بدورهم، تشكيل تنظيم مستقلّ وقرروا إصدار نشرتهم الخاصة التي أطلقوا عليها اسم "إيميت" (الحقيقة)، والتي عرضوا فيها توجّههم الشيوعي الجديد. ومع ذلك، فقد تم تأجيل الانقسام النهائي بين الأعضاء اليهود والفلسطينيين في الحزب حتى العام ١٩٤٣ بسبب التطورات الدراماتيكية التي وقعت على الساحة الدولية خلال هذه السنوات.

الانقسام في صيف ١٩٤٣

لقد تسببت معاهدة ريبنتروب- مولوتوف (Ribbentrop - Molotov pact) والغزو الألماني لبولندا وإعلان الحرب على ألمانيا من قبل بريطانيا في شهر أيلول ١٩٣٩ في خلط الأوراق بالنسبة لكلا الفصيلين في الحزب الشيوعي الفلسطيني. وفي ضوء هذه الأحداث التي وقعت في تلك المرحلة، كانت المنشورات والمقالات التي تصدر عن الفصيلين تتقاطع مع بعضها البعض إلى درجةٍ كبيرة، حيث كانت في معظمها لا تزيد عن أن تردّد الكلمات والعبارات التي كانت الدعاية (البروباغندا) الروسية تطلقها، وذلك من قبيل شجب "الحرب الإمبريالية"، واتهام بريطانيا وفرنسا بالتسبب في اندلاع الحرب ودعوة الشباب اليهود إلى الإحجام عن العمل كعتادٍ للمدافع لدى بريطانيا، بحيث يتكبّدون هم أنفسهم الخسائر البشرية بالنيابة عنها. ولذلك، دفع اندلاع الحرب العالمية الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى تبنّي موقف ملتهبٍ وعنيفٍ ضد البريطانيين، وهو موقفٌ تسبب في عزله بصورة أكبر عن المجتمع الصهيوني الذي كان جميع أفراده يقفون بقلب رجلٍ واحدٍ إلى جانب بريطانيا بعد أن دخلت الحرب ضد ألمانيا النازية. وبعد ذلك، وجد الحزب نفسه مضطرًا إلى العمل في ظل ظروف صعبةٍ تَسِم عمل المنظمات السرية التي تتعرض للقمع والتدابير الإدارية التي فرضتها عليها السلطات البريطانية والحركة الاستيطانية الصهيونية في الييشوف (Zionist Yishuv). وفي ظل هذه الظروف، استفحل الشرخ الذي كان قائمًا بين فصيليّ الحزب الشيوعي الفلسطيني وبلغ أوجَه. وكان السبب الرئيس وراء ذلك يكمن في أن الحزب ناشد الجماهير الفلسطينية التي كانت تأمل في قرارة نفسها في أن يهزم النازيون الشعب البريطاني، ووصول حكم الانتداب البريطاني في فلسطين بذلك إلى نهايته. وفي المقابل، ناشد أعضاء القسم اليهودي في الحزب الدوائر الاشتراكية والمستنيرة ضمن الحركة الاستيطانية الصهيونية وحاولوا إقناع منتسبيها بأفضلية البقاء على الحياد في تلك الحرب العالمية إذا ما تعرضت بريطانيا للهزيمة فيها، وذلك من أجل الفوز بدعم الاتحاد السوفييتي عند إقامة الدولة الاشتراكية الصهيونية على أرض إسرائيل ("Eretz Israel") في المستقبل.

وبعد أن دخل الاتحاد السوفييتي في الحرب إلى جانب بريطانيا في شهر حزيران ١٩٤١، شرع ميكونيس ورفقاؤه اليهود في الحزب الشيوعي الفلسطيني في تغيير موقفهم العدائي تجاه الحركة الاستيطانية الصهيونية على نحوٍ تدريجيّ. وفي ضوء الظروف المستجدة، برز تقاربٌ جديد بين الحزب وأعضاء حركة "إيميت" "المنشقين". وفي صيف العام ١٩٤٢، أي بعد ثلاث سنوات من انقسام الحزب، عاد أعضاء القسم اليهودي للانضواء تحت راية الحزب بصفتهم أفرادًا. غير أن التئام هذا الحزب لم يعمّر طويلاً.

وكان فؤاد نصار، وبولس فرح، وإميل توما، وتوفيق طوبي وجبرا نقولا – وهم الزعماء الفلسطينيون في الحزب – قد شرعوا لتوّهم في العمل بصفة مستقلة عن القيادة اليهودية، وذلك ضمن نادي "شعاع الأمل" الثقافي وضمن شبكات جمعية العمال العرب في حيفا. وفي نهاية المطاف، شكّلت هذه الجماعات الجديدة من الزعماء العرب تنظيمًا حديثًا – هو عصبة التحرر الوطني. وقد حافظت هذه العصبة، بصفتها منظمةً شيوعيةً، على ولائها للاتحاد السوفييتي، ومن ثم عبّرت عن دعمها ومساندتها لبريطانيا والحلفاء في حربهم ضد النازية. وعلى خلاف الشيوعيين اليهود، واصل أعضاء عصبة التحرر الوطني الوقوف خلف الحركة القومية العربية في نفس الوقت.

فكان لا مفرّ من بروز معارضة الأعضاء الفلسطينيين بسبب عودة أعضاء القسم اليهودي إلى الحزب، وما اقترن بها من تعاظم درجة التعاون بين الحزب نفسه والمنظمات البريطانية والصهيونية في المجهود الحربي ضد النازية. وكان من شأن هذه المعارضة تقويض وحدة الحزب مرةً أخرى.

وفي بادئ الأمر، أعلن التيار الغالب في الحزب، والذي كان ميكونيس يتزعمه، الحرب، وواصل الإعلان على مسمع من الأعضاء الفلسطينيين عن ولائه لسياسة "العربنة"، وعبّر بالتالي عن وجهة نظره بشأن الحركة الوطنية العربية باعتبارها حاملة الراية الوحيدة في الكفاح التاريخي ضد الحكم البريطاني والحركة الصهيونية. وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن السيف سبق العذل بالنسبة لموسى ورفقائه الفلسطينيين؛ فالاختلاف في الآراء الذي ساد بين الأعضاء اليهود في الحزب كان يبدو بالنسبة إليهم بمثابة جدلٍ عقيمٍ لم يعمل على تغيير الوجهة الصهيونية الجديدة التي بات الحزبُ يصطبغ بها.

وكان فؤاد نصار، وبولس فرح، وإميل توما، وتوفيق طوبي وجبرا نقولا – وهم الزعماء الفلسطينيون في الحزب – قد شرعوا لتوّهم في العمل بصفة مستقلة عن القيادة اليهودية، وذلك ضمن نادي "شعاع الأمل" الثقافي وضمن شبكات جمعية العمال العرب في حيفا. وفي نهاية المطاف، شكّلت هذه الجماعات الجديدة من الزعماء العرب تنظيمًا حديثًا – هو عصبة التحرر الوطني. وقد حافظت هذه العصبة، بصفتها منظمةً شيوعيةً، على ولائها للاتحاد السوفييتي، ومن ثم عبّرت عن دعمها ومساندتها لبريطانيا والحلفاء في حربهم ضد النازية. وعلى خلاف الشيوعيين اليهود، واصل أعضاء عصبة التحرر الوطني الوقوف خلف الحركة القومية العربية في نفس الوقت. وبذلك، رفضت العصبة التعاون مع أية منظمة صهيونية ولم توافق إلا على تعليق موقفها ضد البريطانيين لفترةٍ وجيزةٍ فقط. وبالفعل، مثّل أعضاء عصبة التحرر الوطني معظم الأفراد المتنورين والتقدميين في النخبة المثقفة في فلسطين. ومن المؤكد أن أعضاء العصبة لم يكونوا في حالٍ من الأحوال قوميين عربًا متحمسين أو مغامرين على نحو ما وصفهم به باجوجا وإيتنغر (Ettinger) وبريمينغر (Preminger) وزملاؤهم من أعضاء القسم اليهودي في الحزب. فكما يقول بولس فرح في الكتاب الذي ألّفه حول سيرته الذاتية، دعت العصبة في ثلاثة مقالات من أصل المقالات الست التي أصدرتها إلى "إقامة علاقات جيدة بين الجماهير اليهودية والعربية وتعزيز التعاون بينها".

وفي المقابل، استمر الجدل القائم بين الفصيلين اليهوديين إلى أن وحّدهما خطاب غروميكو (Gromyko) الشهير مرةً أخرى في نهاية المطاف. وقد سلّم الحزب الشيوعي الفلسطيني، بقيادة شموئيل ميكونيس (Smuel Miconiss) ومئير فيلنر (Meir Wilner) وإستر فيلينسكا (Ester Wilnskah)، في تلك المرحلة، وبدافعٍ من جميع المقاصد والغايات التي كانوا يرمون إليها، بموقف اليسارٍ الصهيوني الذي تبنّاه "القسم اليهودي"، والذي اختار في العام ١٩٤٥ إعادة تسمية نفسه، حيث بات يُعرف بـ "الجمعية التعليمية

الشيوعية في أرض إسرائيل" (" - The Communist Educ tional Association in Eretz- Israel ").

وفيما يتعلق بالجهة المسؤولة عن الشرخ الذي أصاب الحزب الشيوعي الفلسطيني، تبقى الحقيقة التاريخية واحدة في المحصّلة: لقد انقسم الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي جرى توحيده في صيف العام ١٩٤٣ إلى حزبين وطنيين متصارعين - حزب يهودي وآخر عربي.

وقد وصل المسار المتقلّب الذي اجتازه الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى نهايته بعد الدعم الذي قدمه لحل التقسيم، وبالتالي تعبئة أعضائه اليهود لـ "الدفاع" عن الدولة اليهودية الجديدة التي أُقيمت في أعقاب حرب العام ١٩٤٨. فمباشرةً بعد إعلان الاستقلال في يوم ١٥ أيار ١٩٤٨، قررت اللجنة المركزية التي كان جميع أعضائها من اليهود التخلي عن الاسم القديم للحزب الشيوعي الفلسطيني نهائيًا واعتماد الاسم الجديد "الحزب الشيوعي الإسرائيلي" باعتباره الحزب الموحد الذي يضمّ الفصيلين اليهوديين. وبذلك، توّج أعضاء هذا الحزب الجديد، بعلمٍ أو دون علمٍ منهم، تغييب الحزب الشيوعي الفلسطيني باعتباره التنظيم السياسي الوحيد الذي كافح العرب واليهود سوية تحت رايته في سبيل الغاية المشتركة المتمثلة في إقامة دولة اشتراكية مستقلة في فلسطين.

التاريخ الصهيوني

تأسّست الحركة الصهيونية، بحسب تعريفها نفسه، على هدي من الحركات الوطنية التي نشأت في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية في القرنين التاسع عشر والعشرين الماضيين. ولم تضمّ الحركة الأولى، وهي حركة "حوفِفي تسيون" (محبّو صهيون) التي كانت تتشابه مع الحركة الوطنية الألمانية التي نشأت في ظل احتلال نابليون، في صفوفها في بداية عهدها سوى مجموعة صغيرة من المثقفين اليهود الذين حاولوا إعادة تعريف الأساس الروحي الميتافيزيقي للديانة اليهودية وفق معطيات وطنية مستحدثة. وبذلك، يُنظَر إلى القومية في هذا التعريف الجديد على أنها تمثل نهضةً (Tkhi'ya) و/ أو استمرارًا بسيطًا للكيان القديم الذي يتخطى التاريخ، والذي كان يسمى "شعب إسرائيل". ومن المؤكد أن الحركة المذكورة لم تحذُ حذو القومية الجمهورية التي سادت في أميركا وفرنسا في ذلك الحين، والتي نشأت - بحسب ما جاء على لسان توماس جيفرسون (Thomas Jefferson)- لتعبّر عن القدرات الذاتية والخلاقة التي تتمتع بها "الأجيال الحية".

وعلى نحوٍ مماثل، يفسّر أندرسون (Anderson) ظهور القومية في أميركا اللاتينية على أنه يشكل "تجديدًا متزامنًا" ("synchronic novelty") للمجتمعات، بينما ينظر هيرتسل (Herzel) وبقية مؤسسي الحركة الصهيونية إلى البطل الصهيوني الجديد في فلسطين من ناحية ارتباطه بالزمن على أنه "اليهودي الذي فقد الصلة بجذوره"، ولكنه يعود في نهاية المطاف إلى "وطنه".

وقد حظيت هذه الفكرة الصهيونية، من بين المراكز اليهودية الكبرى في أوروبا الشرقية، ببعض الدعم والمساندة لأنها منحت الشعوب المضطهدة هناك شعورًا بالثقة في النفس وأملاً خياليًا في اقتراب نهاية المسيحية، باعتبارها الغاية التي تسم التاريخ اليهودي الموغل في الزمن. ولذلك، لم تكن المفارقة الحقيقية تتعلق في جانبٍ كبيرٍ منها بالفكرة الصهيونية نفسها، وإنما بالمحاولة التي بُذلت في سبيل إنجاز النهضة الوطنية لليهود في شرق أوروبا من خلال إقامة المستوطنات الاستعمارية (الكولونيالية) الأوروبية في فلسطين العثمانية. وكان من المؤكد، في خضمّ الظروف الكولونيالية الجديدة، أن الفكرة الصهيونية فقدت جوهرها المسياني الروحي وباتت تشكل سلاحًا أيديولوجيًا وقع في أيدي المستوطنين الصهيونيين واستخدموه في صراعهم التاريخي مع الشعب الفلسطيني المحلي. ولذلك، فمن السهل على المرء أن يرى أن فكرة القومية اليهودية لم تعد تمثل سوى "وعيٍ زائفٍ" تبنّاه المستوطنون الصهيونيون بحيث استحوذ على أذهانهم وعلى نحو مكنهم من تبرير سلامته من الناحية الأخلاقية، وذلك دون التضحية بالسيادة التي كان من الضروري توفرها لهم في ضوء المعايير الأخلاقية الحقيقية. وفي المحصلة، يبدو أن الميزة الوحيدة التي اتّسم بها الاختراع الصهيوني لفكرة القومية اليهودية تكمن في أنه أتاح للحركة الاستيطانية الصهيونية المحافظة على إحساسها بالتفوق الأخلاقي على الفلسطينيين، في ذات الوقت الذي تمكنت فيه من استغلال ورقة الديانة اليهودية على الصعيدين الدولي والداخلي من أجل اختراعٍ قوميٍّ جديد، على الرغم من محدوديته.

وبالفعل، تفصح نظرةٌ عامةٌ سريعةٌ على تاريخ النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني عن أن المجتمع اليهودي القديم كان يعيش طوال تاريخه في سلامٍ ووئامٍ مع سكان فلسطين. ولكن لم يدم هذا الأمر طويلاً

وبالفعل، تفصح نظرةٌ عامةٌ سريعةٌ على تاريخ النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني عن أن المجتمع اليهودي القديم كان يعيش طوال تاريخه في سلام ووئام مع سكان فلسطين. ولكن لم يدم هذا الأمر طويلاً بعد أن بذلت القيادة الصهيونية الجهود لإقامة دولة يهودية تقوم على أساس من الإقصاء والهيمنة في فلسطين، وهو ما تسبب في نهاية المطاف بتقويض العلاقة المتبادلة التي كانت قائمةً بين اليهود وغير اليهود وأشعلت النزاع الطائفي بين هذين المجتمعين. وقد عبّر الكُتّاب الصهيونيون المتنوّرون في مطلع القرن العشرين عن انتقادهم للموقف القائم على الإقصاء والهيمنة الذي تبنّاه المستوطنون الصهيونيون تجاه الفلاحين العرب من سكان فلسطين.

بعد أن بذلت القيادة الصهيونية الجهود لإقامة دولة يهودية تقوم على أساسٍ من الإقصاء والهيمنة في فلسطين، وهو ما تسبب في نهاية المطاف بتقويض العلاقة المتبادلة التي كانت قائمةً بين اليهود وغير اليهود وأشعلت النزاع الطائفي بين هذين المجتمعين. وقد عبّر الكُتّاب الصهيونيون المتنوّرون في مطلع القرن العشرين عن انتقادهم للموقف القائم على الإقصاء والهيمنة الذي تبنّاه المستوطنون الصهيونيون تجاه الفلاحين العرب من سكان فلسطين. ولذلك، وجّه إسحق إبشتاين (Yitshak Epstein) تحذيره للمستوطنين الصهيونيين في مقالته المعروفة، التي جاءت تحت عنوان "المسألة الخفية" (The Hidden question)، من المستقبل المنظور ما لم يعملوا على تغيير موقفهم تجاه الفلاحين العرب. ومن المصادر التاريخية التي نستطيع أن نستشهد بها في هذا المقام الكتاب الذي ألفه نيفيل ماندل (Nevile Mandel)، وهو بعنوان "العرب والصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى" (The Arab and Zionism Before World War I). ففي هذا الكتاب، يخرج المؤلف بتمييزٍ واضحٍ وقاطع بين الموقف التقليدي الذي وَسَم طائفة السفاراديم اليهوديةَ والموقفَ المتعالي الذي تبنّته الحركة الاستيطانية الصهيونية. ولتعزيز فرضيته النقدية، يشير ماندل إلى أنتيبي (Antebi)، وهو أحد الأعلام المعروفين في طائفة السفاراديم في حينه، "والذي كان يتملّكه شعورٌ مختلط حيال الحركة الصهيونية، والذي وجّه انتقاداته في كثير من الأحيان للأساليب التي انتهجتها ولممثليها". ويستطيع المرء أن يقف على أمورٍ مشابهةٍ لهذه الحالة في مقالة ألبيرغ (F. A Alberg) التي ألفها تحت عنوان "المسألة العربية والقيادة الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى" (The Arab problem and the Zionist leadership before World War I)، حيث كتب يقول:

في مطلع هذا القرن، كان السكان اليهود الذين قطنوا في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل (Jewish Yishuv) يتألفون من طائفتين: طائفة اليهود الأشكنازيين (الغربيين) التي كانت تقوم في أساسها على "الهالاخاه" (الشريعة اليهودية)، وطائفة اليهود السفاراديم... وبحسب ما كتبه كلافاريسكي (Kalvariski)... فقد تعكّر صفو العلاقة التي كانت قائمةً بين هؤلاء السكان اليهود والسكان العرب للمرة الأولى مع ظهور العنصر اليهودي الثالث: وهو المستوطن الزراعي الصهيوني.

كما حذر إليعازر هاكوهين (Elezer Ha'kohen)، وهو أحد الزعماء التاريخيين لحركة "هاشومير هاتسعير" (Ha'shomer Ha'tza'ir) اليسارية الصهيونية، في مطلع العقد الثالث من القرن الماضي من التبعات الوخيمة التي قد تنجم عن السياسة الصهيونية تجاه العرب.

نهاية التاريخ اليهودي

على نقيض الأدلة التاريخية وأي معايير أكاديمية جدية، يصف جمهور المؤرخين الإسرائيليين التاريخ الصهيوني خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين من زاويةٍ أيديولوجيةٍ في جانب كبير منه، كما لو كان الهمّ الرئيس الذي واكب الحركة الصهيونية يتمثل فيما سماه زئيف شتيرنهيل (Ze'ev Sternhell) "بناء الأمة". ويعبّر مؤرخو التيار السائد عن توجهاتهم وميولهم الصهيونية بصورةٍ جليةٍ في جميع كتبهم وأبحاثهم التي يفسرون فيها

الواقعية السياسية الصهيونية (Zionist realpolitik) على أنها إنجازٌ للإيمان المسياني اليهودي ونهايةٌ للتاريخ اليهودي، حتى لو كان الأمر على نقيض ذلك بموجب أي معيارٍ تاريخيٍّ ذي معنى - وذلك بمعنى تفسير البيانات الصهيونية بما يتوافق مع واقعيتها السياسية. وبالتالي، ينظر هؤلاء المؤرخون إلى النزاع التاريخي مع الفلسطينيين على أنه نتيجةٌ حتميةٌ لعمل اليهود على بناء أمتهم، أو على أنه نزاعٌ قوميٌّ بين شعبين يعيشان على الأرض نفسها. وينبغي على المرء أن يقرّ بأن الأمر كان على هذا النحو، خصوصًا كما هي الحال بالنسبة لمؤرخي الحركة العمالية الصهيونية، وهم الأعضاء المعروفون في معسكر السلام في إسرائيل. ومن بين هؤلاء المؤرخين المؤلفون أنيتا شابيرا (Anita Shapira)، ويوسيف غورني (Yosef Gorny) وزئيف شتيرنهيل (Ze'ev Sternhell) ودافيد دي-فريز (David De-Freez).

في هذا السياق، يشير كتاب شتيرنهيل "بناء الأمة أو مجتمع جديد" (Nation-building or a New Society) إلى الميول الأيديولوجية التي تسيِّر علم التاريخ في إسرائيل. ففي المحصلة، يبدو أن شتيرنهيل ينتقد الموقف الكولونيالي الذي ينزع إلى فرض الهيمنة لدى الزعماء الصهاينة، لأنهم عجزوا عن تنفيذ فكرتهم الاشتراكية الصهيونية. وبعبارةٍ أخرى، يحاول شتيرنهيل أن يبيّن أن باعث القلق الرئيس الذي كان يعتري بن غوريون (Ben Gurion) وزملاءه يكمن في بسط سلطتهم والتمتع بكافة المزايا المادية التي كانوا يسعون إلى الحصول عليها، وذلك في الوقت الذي كان ينبغي عليهم - بحسب مبادئهم الاشتراكية - أن يقيموا مجتمعًا اشتراكيًا. وعلى هذا المنوال، يشجب شتيرنهيل - باعتباره خاتمة رعيل الاشتراكيين الصهيونيين - هؤلاء الزعماء بسبب استغراقهم في العمل على إقامة الدولة ولأنهم أغفلوا، نتيجةً لذلك، المحاولة التي بذلها الاشتراكيون لتوفيق أوضاع المجتمع. ويبدو أن شتيرنهيل ينسى أن الأمر لا يقتصر على الزعماء الصهاينة وحدهم، بل إنه كان يشمل جميع الماركسيين الذي برزوا خلال القرن العشرين منذ عهد لينين، والذين قدّموا إقامة الدولة على الثورة الاشتراكية. ولذلك، تكمن المعضلة الرئيسة التي تشوب النقد الذي خرج به شتيرنهيل في أنه يتطرق إلى المجتمع الصهيوني نفسه، ويتجاهل بصورةٍ تامةٍ الموقف الذي تبنّاه هذا المجتمع تجاه عموم المجتمع الفلسطيني من حوله، وهو موقفٌ تحرّكه الهيمنة التي كانت تشكّل، في ذات الوقت، القوة المحركة والمظهر البارز للاختراع الصهيوني لـ "الأمة اليهودية". وهذا هو السبب الذي يقف وراء وصف الفلسطينيين على أنهم "أناس غير مرغوب فيهم" (Persona Non Grata) في كتاب شتيرنهيل، وهو السبب ذاته الذي تغيب من أجله كلمتا "العرب" أو "الفلسطينيون" من فهرسه. كما أن هذا هو السبب وراء الإحجام عن ذكر الحزب الشيوعي الفلسطيني والنضال الذي خاضه في سبيل توحيد الأمة الفلسطينية.

وفضلاً عن ذلك، يُطلعنا كتاب يوسيف غورني "المسألة اليهودية والمشكلة العربية" (The Jewish Question and the Arab Problem) على النظرة الصهيونية التي يتبناها المؤلف أكثر من أي شيء آخر. ويبدو أن غورني، على خلاف شتيرنهيل، يعترف بالفلسطينيين، ولكنه يعترف بهم من ناحية نظرته إليهم من زاويته الصهيونية، أي على أنهم أولئك الذين قاوموا "الادعاء اليهودي بالسيادة على أرض وطنهم التاريخي". ولذلك، يعرّف غورني الفلسطينيين سلفًا في عنوان كتابه على أنهم مجرد "مشكلة" ("problem"). وفضلاً عن ذلك، يجد الموقف "الإشكالي" الذي يتخذه هذا المؤلف تجاه الفلسطينيين تفسيرًا له في العنوان الفرعي لكتابه، وهو: "التيارات الأيديولوجية الصهيونية وموقفها من الكيان العربي في أرض إسرائيل" (The Zionist ideolog - cal currents and their attitude to the Arab entity in the Land of Israel). وبالفعل، فمن وجهة نظر "التيارات الصهيونية"، لم يكن الشعب الفلسطيني موجودًا كما هي حال أي شعب آخر على أرض وطنه، بل كان يُنظر إلى هذا الشعب على أنه "كيانٌ عربيٌّ دخيلٌ وعدوانيٌّ استوطن في أرض إسرائيل". وبذلك، يفترض غورني بأن أصل النزاع الصهيوني- الفلسطيني "يمكن عزوه إلى التوتر الطبيعي القائم بين الشعبين". فإذا كان الأمر كذلك، لا يشير غورني، كما لم يفعل شتيرنهيل من قبله، إلى "التيار" الشيوعي الفلسطيني لأن ذلك قد يقوّض فرضيته التبريرية الصهيونية التي يقول فيها بحتمية النزاع بوصفه "توترًا طبيعيًا بين شعبين".

وقد اخترت، من بين جميع الكتابات التي ألفتها أنيتا شابيرا، كتاب السيرة الذاتية الذي نشرته عن بيرل كاتسينلسون (Berl Katsenlson)، وهو أحد الزعماء التاريخيين لحزب العمال في أرض إسرائيل (Mapay) الذي كان يشكل الحزب الاشتراكي

وأنا أقترح بأن نعتمد الحقيقة التاريخية التي تقضي بأن تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية يتشابك مع تاريخ الحركة الصهيونية من الناحية السياسية والتي تراها نظريات القومية الحديثة وتصنيفا "المكان" و"الزمان" اللذان يضعهما كانْت (Kant). وأنا أعني بذلك أن هاتين الحركتين كانتا تعبّران عن لحظتين متضادّتين لذات العملية التاريخية التي وقعت في فلسطين خلال حقبة الانتداب. وهذا هو السبب الذي يوجب إجراء بحثٍ تأريخيٍ جديٍ يركّز على التاريخ الفلسطيني خلال تلك الفترة ويقدمه بصفته كفاحًا وطنيًا فلسطينيًا ثار ضد الهيمنة السياسية المزدوجة التي مارستها بريطانيا والحركة الصهيونية.

الصهيوني البارز في إسرائيل.

من الواضح أن شابيرا تنأى بنفسها عن النظرة الشيوعية التي يتبناها كاتسينلسون. ولذلك، فهي تقدّم الاتحاد السوفييتي والشيوعيين الفلسطينيين على أنهم يمثلون الشخصيات الأدبية (Dramatis Persona) في كتابها. وعلاوةً على ذلك، تشدّد شابيرا، كما هي حالها في جميع كتبها الأخرى، على الميزة التي تفوق كاتسينلسون بها على طبنكين (Tabenkin) ومئير يعري (Meir Yary)، وهما زعيما التيارين الاشتراكيين الصهيونيين الآخرين. فعلى خلاف طبنكين ويعري، يدرك كاتسينلسون الآثار السلبية التي خلّفتها الفكرة الشيوعية والسياسة التي كانت تؤيّد الاتحاد السوفييتي على العمال اليهود، وهو ما دفعه إلى الوقوف في وجهها بكل ما أوتي من قوة. وفي ذلك، تقول شابيرا:

لقد كانت مسألة موقف حركته من الاتحاد السوفييتي شغله الشاغل... ففي قرارة نفسه، كانت السياسة التي تقوم على تأييد الاتحاد السوفييتي تعادل الخيانة.

ولا تزيد شابيرا عن شرح ما قاله كاتسينلسون وتفسيره، كما أنها لا تتحمّل عناء الإجابة عن السؤال الذي يقف على السبب وراء هوسه بموقف حركته من الاتحاد السوفييتي واستحواذه عليه. فبحسب ما يستطيع المرء أن يستنبط من كتابات كاتسينلسون نفسه، يبدو أن السبب الرئيس من موقفه المذكور كان يكمن في خوفه من أن الفكرة الشيوعية العالمية قد تقوّض النزعة الوطنية الصهيونية في أوساط العمال اليهود، وبالتالي استعدادهم للتضحية بأنفسهم في سبيل مشروع بناء الأمة الصهيونية. وفضلاً عمّا تقدم، يمكن أن تقرّب هذه الفكرة هؤلاء العمال من نظرائهم العمال العرب وتعزلهم عن زعمائهم القوميين اليهود. وعلى هذا المنوال، تذكر شابيرا خوف كاتسينلسون من "تأثير الكيبوتس على تعليم جيل الشباب من الرواد الصهيونيين"، حيث يبدو مرةّ أخرى أنه قلقٌ من المحاولة التي بذلها اليسار الإسرائيلي لفتح عيون جيل الشباب وتنويرهم وطرح معنىً حقيقيٍّ للاشتراكية العالمية على المستوطنات الطائفية التي أقاموها. وكان هذا الخوف نابعًا من احتمالية نبذ فكرة القومية اليهودية من جانب الفكرة العالمية للمجتمع الاشتراكي، حيث ترى شابيرا أن الاشتراكيين الصهيونيين والشيوعيين لعبوا دور "الأفعى" التي أغرت الشباب الرواد ودفعتهم إلى الانحراف عن جادة الصواب. وتظهر الشخصية اللاهوتية من خلال الطريقة البطولية التي تنتهجها المؤلفة في تصوير كاتسينلسون على أنه "نبيٌّ أعزل" يقاتل ضد الغرباء ويحذر شعبه من الخونة والكفار الذين انقلبوا على شعبهم. ومن الجلي أن شابيرا تتوافق مع الموقف الذي يتبناه كاتسينلسون ضد الشيوعية بحذافيره، وهو ما يمكن أن يشير إلى الطابع الأيديولوجي الصهيوني الذي يَسِم كتاباتها التاريخية.

وأخيرًا وليس آخرًا، يفصح عنوان كتاب دي- فريز "المثالية والبيروقراطية: أصول حيفا الحمراء" (Idealism and B- reaucracy: The Origins of Red Haifa) لأول وهلةٍ عن الميول الأيديولوجية الصهيونية التي يتبناها مؤلفه. وأنا أشير في هذا المقام، وبصفةٍ رئيسةٍ، إلى الوصف الإيجابي الذي خرج به مجلس عمال حيفا، باعتباره اتحادًا أصيلاً كان يعمل بكل طاقته من أجل العمال اليهود. وبذلك، يبدو أن هذا الكتاب يتناول النزعة "المثالية" التي كانت تَسِم زعماء العمال في حيفا، والذين يقدّمهم الكتاب من ناحيةٍ مثالية، وذلك على خلاف الصورة البيروقراطية للهستدروت

(وهو منظمة العمال اليهودية الرئيسة). وتبيّن قراءةٌ خاطفةٌ للعناوين والمادة التي يشتمل عليها الكتاب الطبيعة الرومانسية التي يرسم المؤلف من خلالها زعماء مجلس عمال حيفا. ومن أجل التأكيد على المنهجية التي يتبناها لتبرير ميوله الصهيونية، يركز دي-فريز على الفترة التاريخية القصيرة التي شهدها العقد الثاني من القرن الماضي دون غيرها. ومع ذلك، يتجاهل المؤلف بصورةٍ تامةٍ الدور الذي اضطلع به آبا حوشي (Aba Khushi)، الزعيم الكاريزماتي الملهم لمجلس عمال حيفا، ومعاونوه في طرد السكان العرب من حيفا خلال حرب العام ١٩٤٨. وفي ضوء هذه الأحداث المأساوية، فنحن لا نجانب الصواب إن قلنا أن أصعب الصراعات التي خاضها مجلس عمال حيفا لم تكن موجَّهةً ضد الرأسماليين الصهيونيين، وإنما ضد زملائهم من العمال العرب. وقد وظّف المجلس وبلا مواربةٍ الشعارين الرئيسيين اللذين يتبناهما الهستدروت، وهما: "عفودا عيفريت" (العمل العبري) و"كيبوش ها-عافودا" (احتلال العمل). وكان من الواضح، في ضوء حرب العام ١٩٤٨ كذلك، أن صلاحيات مجلس عمال حيفا، بصفته اتحادًا عماليًا مارس نشاطه خلال العقدين الثاني والثالث من القرن الماضي، كانت تمثل وسيلةً لخدمة غايات مشروع بناء الأمة الصهيونية. وهذا يعني أن المثالية التي كانت تميز الزعماء الكاريزماتيين في "حيفا الحمراء" ("Haifa Ha'adoma") كانت في أساسها مثاليةً صهيونية. وزيادةً على ذلك، يذكر دي- فريز حادثةً مقتضبةً اقترح مجلس عمال حيفا فيها قبول العمال العرب في عضويته. وكما كان متوقعًا، فقد انتهت هذه المحاولة بمجرد قرارٍ يقضي "بتعليم مجموعة من الأعضاء العرب، الذين يستطيعون، من خلال المساعدة التي نقدمها لهم، تعليم القسم الوطني العربي". ولكن الصعوبة الرئيسة التي برزت في هذا الجانب تكمن في أن المؤلف يفسّر ذلك النوع من المواقف الكولونيالية الصهيونية على أنه تعبيرٌ آخر عن المثالية التي وَسَمت مجلس عمال حيفا وتضامنه مع العمال الفلسطينيين. وفي المحصلة، يوحي الانطباع العام الذي يتولّد لدينا من هذا الكتاب أن دي- فريز كان يفضّل وصف مجلس عمال حيفا في صورة زعمائه الصهيونيين "المثاليين". وفي نفس الوقت، يغضّ دي- فريز الطرف عن وجهة نظر بولس فرح ورفقائه من أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني باعتبارهم أداةً أخرى من أدوات الهيمنة البريطانية والصهيونية، إن لم يكونوا كذلك فقط.

التاريخ الاستشراقي

كان من المتوقّع أن يتّبع أعلام المستشرقين الموقف السلبي الذي اعتمده المؤرخون الصهيونيون تجاه الحزب الشيوعي الفلسطيني. وفي الواقع، كان يتعين على هؤلاء المستشرقين أن يسدّوا الفجوة التي خلّفها المؤرخون الصهيونيون الذين قدّموا تاريخ حقبة الانتداب إلى الجمهور الإسرائيلي. فمرةً أخرى، تظهر قراءةٌ مقتضبةٌ لجميع الكتابات الاستشراقية التي نُشرت حول حقبة الانتداب أن هذه الحقبة لم تكن هي ما تناوله تلك الكتابات. فقد كان توزيع المهام بين المؤرخين الصهيونيين والمستشرقين يسير على النحو التالي: يتناول المؤرخون الصهيونيون قدوم الحركة الصهيونية إلى أرض فلسطين، في حين كان الشغل الشاغل للمستشرقين ينصبّ على إقصاء الشعب الفلسطيني عن "أرض إسرائيل"، وهو ما كان يشكّل مسافةً جغرافيةً ومسافةً تاريخيةً في ذات الوقت. ولذلك، كانت غالبية كتابات "المستعربين" إبان فترة الانتداب تتناول الأحداث والخرافات والتراث الشعبي (الفولكلور) الذي كان سائدًا في التاريخ السحيق للإسلام والشرق الأوسط. وبمعنى آخر، يخلو هذا التاريخ من أيّة إشاراتٍ تخص الفلسطينيين وتميّزهم، كما يخلو من أية علاقة تربط تلك الإشارات بالمجتمع الفلسطيني "هنا" و"الآن". والأدهى من ذلك أن تلك الكتابات لم تأتِ على ذكر نهوض الحركة الوطنية الفلسطينية من خلال الكفاح الذي خاضته ضد الحكم البريطاني والحركة الصهيونية. وعلاوةً على ذلك، يبدو أن هؤلاء المؤلفين يستهلّون كتاباتهم عن علمٍ وعن قصدٍ بالتاريخ التوراتي للكنعانيين و"بني إسرائيل" ويوردونه كمقدمةٍ للفصل الذي يتطرق إلى "احتلال العرب لأرض فلسطين". وفي ضوء الرواية الصهيونية للتاريخ القديم، فمن الطبيعي أن يفقد الشعب الفلسطيني خصاله الوطنية الحديثة وأن يتحول، في واقع الأمر، إلى سليلٍ للكيانات الدينية- الإثنية، من قبيل "العرب"، و"القيسيين واليمانيين" و"المسلمين" و"المسيحيين".

وأنا أقترح بأن نعتمد الحقيقة التاريخية التي تقضي بأن تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية يتشابك مع تاريخ الحركة الصهيونية من الناحية السياسية والتي تراها نظريات القومية الحديثة وتصنيفا "المكان" و"الزمان" اللذان يضعهما كانْت (Kant). وأنا أعني بذلك أن هاتين الحركتين كانتا تعبّران عن لحظتين متضادّتين لذات العملية التاريخية التي وقعت في فلسطين خلال حقبة الانتداب.

وهذا هو السبب الذي يوجب إجراء بحثٍ تأريخيٍّ جديٍّ يركّز على التاريخ الفلسطيني خلال تلك الفترة ويقدمه بصفته كفاحًا وطنيًا فلسطينيًا ثار ضد الهيمنة السياسية المزدوجة التي مارستها بريطانيا والحركة الصهيونية.

ملخص

تثبت هذه المقالة، في محصّلتها، أن أهمية التجربة التاريخية التي عايشها الحزب الشيوعي الفلسطيني والعلاقات التي ولّدتها كانت سلبيةً بسبب الفشل التاريخي للحزب في توحيد أعضائه اليهود والعرب في ضوء الفكرة الشيوعية العالمية التي كان يتبناها في المقام الأول، وبسبب الموقف السلبي الذي اتخذه التيار السائد من المؤرخين الإسرائيليين تجاهه في المقام الثاني.

وتتمثل النتيجة الإيجابية التي نلمسها في هذا الشأن في الميّزة التي تفوّق بها البرنامج الديمقراطي العام الذي اعتمده الحزب الشيوعي الفلسطيني على الأجندة اليهودية الإقصائية التي تبنتها الأحزاب الصهيونية. وتكمن الصعوبة الرئيسة التي واجهتها الأحزاب الصهيونية في أنها حاولت تعبئة المهاجرين اليهود المنبوذين والمضطهدين عن طريق ربطهم بأمةٍ قديمةٍ وعظيمةٍ، كانوا يسمونها "عام إسرائيل" (شعب إسرائيل). وكانت هذه الصعوبة تتمثل في أن تلك الأحزاب الصهيونية كانت تستطيع تحقيق أجندة بناء دولتها اليهودية الإقصائية من خلال النزاع والصراع على الهيمنة كتعبيرٍ عن الأصالة والتفوق الروحي لما يُسمى أمتهم القديمة على الشعب الفلسطيني الأصلي.

ومن جانبٍ آخر، لم يكن من الممكن للفكرة الشيوعية العالمية التي اعتمدها الحزب الشيوعي الفلسطيني أن ترى النور إلا عبر تعاون العمال من خلال الصراع السياسي العام الذي يستهدف تحرير المجتمع الفلسطيني بجميع أطيافه وشرائحه. ولكن هذا الحزب تخلّى في نهاية المطاف عن أجندته الديمقراطية العامة واعتمد، عن علمٍ أو دون علم منه، الخطة اليهودية الإقصائية التي تبنّتها الأحزاب الصهيونية بعد الخطاب الذي ألقاه أندريه غروميكو (Andrei Gromico) في شهر أيار ١٩٤٧، والذي تطرّق فيه إلى إقامة دولةٍ قوميةٍ يهوديةٍ مستقلةٍ على أرض فلسطين. ولذلك، تسبّبت هذه النهاية المأساوية التي وصل إليها الحزب في وضع غشاوةٍ على عيون المفكرين الإسرائيليين، مما حال بينهم وبين إدراك الدرس التاريخي الذي عاشه الحزب الشيوعي الفلسطيني باعتباره حزبًا عماليًا فلسطينيًا كان في إمكانه حل النزاع التاريخي القائم بين الشعبين. وإذا كان لنا أن نقول الحقيقة، فقد كان هذا الحزب يملك القدرة على الأخذ بيد الشعبين لمنع توظيف هذا النزاع التاريخي، بصورةٍ ضمنيةٍ، عن طريق كشف جهلهما المنحاز.

[مترجم عن الانكليزية]

قائمة المصادر

- Musa Budeiri. The Palestine Communist Party, 1919-1948: Arab and Jew in the Struggle for Internationalism. London: Ithaca, 1979.
- John Franz'en. "Communism Versus Zionism: The Comintern, Yishuv, and the Palestine Communist Party". Journal of Palestine Studies Vol. XXXVI, No. 2 (Winter 2007): 6–24.
- Walter Z. Laqueur. Communism andNationalism in the Middle East. London: Routledge and Kegan Paul, 1957).
- Samih Samarah. al-‘Amalal-shuyu‘I fi Filastin: Al-tabaqa wal-sha‘b fi muwajahat al-kuluniyaliyya. Beirut:Dar al-Farabi, 1979.
- Maher al-Sharif. Al-Umamiyya al-shuyu‘iyya wa Filastin, 1919–1928. Beirut: Dar Ibn Khaldun, 1980.
- Ilan Pappe. "Critique and agenda: The post-Zionist scholars in Israel". History and Memory, 7(1995): 66-90.
- Yoav Peled, & Shafir, Gershon, "The roots of peacemaking: The dynamics of citizenship in Israel, 1948-1993,". International Journal of Middle East Studies, 28(1995): 391-413.
- Sondra M Rubenstein. The Communist Movement in Palestine and Israe. Boulder, Colorado: Westview Press: 1985.
- Oren Yiftachel. "Ethnocracy: The Politics of Judaizing Israel/ Palestine," Constellations: International Journal of Critical and Democratic Theory, 6(3), (1999): 364-390.